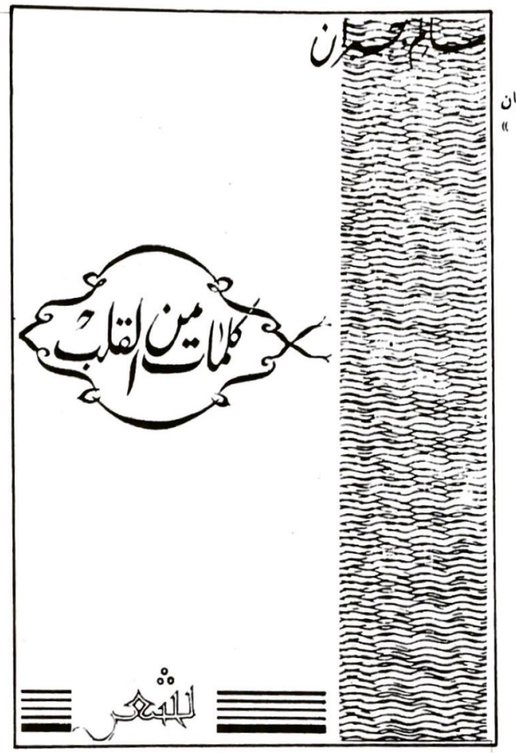

غلاف ديوان « كلمات من القلب »

كلمات من الارض المحتلة:

بدايات الشعر الفلسطيني المقاوم في "كلمات من القلب"

الديوان الذي بين يدينا هو الاول للشاعر الفلسطيني في الارض المحتلة « سالم جبران » • وتناولنا له الان ، بعد مضي حوالي عشر سنوات على صدوره في « عكا » ، ليس لان عنوانه يبتدىء بمفردة « كلمات » كما ابتدأ الديوانين السابقين من الارض المحتلة « كلمات للزمن الاتي » و « كلمات عن البقاء والرحيل » فالصدف دائما تفاجئنا بالكلمات ! ـ وليس لان « سالم جبران » وصل ديوانه الينا عن طريق « هافانا » •• انما لاننا وجدنا في العودة الى هذا الديوان عودة الى بدايات الشعر الفلسطيني المقاوم في الارض المحتلة ، وكلنا يذكر ان الرفيق الشهيد غسان كنفاني ، عندما قدم في الجزء الثالث من كتابه (ادب المقاومة في فلسطين المحتلة ١٩٤٨ ـ ١٩٦٦) « نماذج من شعر المقاومة العربي » كان بينها عدد من قصائد الشاعر « سالم جبران » المدونة في ديوانه هذا « كلمات من القلب » (١) •

(١) « كلمات من القلب » ، سالم جبران ، صدر عن مطبعة دار القبس العربي في عكا ، يحتوي حوالي ٥٦ قصيدة قصيرة ، يقع في حوالي ١٠٤ صفحة • الثمن ٣٥٠ اغورا •

الشاعر « سالم جبران »

لقد كان النقاد دائما ، ومحررو الصحف الثقافية ايضا ، كلما تحدثوا عن شعر المقاومة في الارض المحتلة يذكرون اسم « سالم جبران » بعد محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد ••

فمن هو « سالم جبران » ؟

ولد « سالم جبران » سنة ١٩٤١ في قرية البقيعة في الجليل الغربي ، وانهى دراسته الثانوية في كفر ياسيف • ومنذ مرحلة الدراسة بدأ ينشر الاشعار في مختلف الصحف والمجلات التقدمية في البلاد • ترجم له العديد من قصائده الى العبرية ، الانجليزية ، الافرنسية ، والروسية •• كما نشرت قصائده في الوطن العربي • يعمل في الصحافة منذ ١٩٦١ ، ويرأس هيئة تحرير مجلة « الغد » الواسعة الانتشار والصادرة في الارض المحتلة • بدأ متأثرا بالمدرسة الرومانتيكية ثم تبلور بسرعة اتجاهه الواقعي الثوري في الشعر • وديوانه الذي بين يدينا كتب في الفترة بين ١٩٦١ و ١٩٦٧ •

هذه المعلومات وردت على الغلاف الاخير للناشر « ابراهيم زيبق » ونضيف اليها ان الشاعر عضو في الحزب الشيوعي « الاسرائيلي » « راكاح » •• وللشاعر ديوانان مطبوعان ، الاول : كلمات من القلب • والثاني : قصائد ليست محددة الاقامة •

ملاحظات اولية

اول ما يلفت انتباه قارىء ديوان « سالم جبران » البكر ، ان الشاعر يتوخى من ديوانه تقديم مختلف جوانب شخصيته ، ومختلف همومه الذاتية والموضوعية ، العاطفية والوطنية والقومية والاممية ، والطبقية والاجتماعية • وما ساعد الديوان في تنفيذ رغبة الشاعر كون القصائد قصيرة جدا • بحيث تراوح طولها بين الاربعة اسطر كقصيدة « حب » مثلا •• و اربع صفحات كقصيدتي (١٩٤٨) و (يوم وليلة في المدينة) وما تبقى من القصائد تتراوح بين صفحة وثلاث صفحات •• علما ان الديوان من القطع الصغير •

هموم عاطفية

ضم الديوان عدة قصائد غزلية ، من النوع الرومانتيكي ، وهي قصائد تتغزل بمفاتن الحبيبة الجسدية والروحية والاخلاقية • ولكن « سالم » يضمن قصائده الغزلية الجو الرديء الذي سمم حتى النسيم الذي يتنفسه العشاق العرب في ظل الاحتلال • علما ان أسوأ القصائد الغزلية كانت تلك المنظومة على الطريقة الكلاسيكية حيث كانت اقرب الى اشعار قيس لليلاه ، او عنتر لعبلته • بينما حاول الشاعر ان يرقى بقصيدته الغزلية اكثر ـ ربما بتأثير آشعار ناظم حكمت ولوركا عليه ـ الى مستوى دمج الارض بالحبيبة • يقول الشاعر في قصيدة « حب » التي ختمت الديوان :

« كما تحب الام / طفلها المشوها / احبها ••• / حبيبتي بلادي » (٢) •

ان نجاح الشاعر في القصيدة اعلاه ، لم ينسحب على كل قصائده ، ففي قصيدته « الحب العظيم » يحكي الشاعر لمعشوقته عن المستقبل الذي ينتظرهما وعن احتمالات سوداء قد تعصف بحبهما طالما هما يعيشان في ظل الاحتلال الصهيوني •• ولكن رغم القفلة الساذجة التي انهت القصيدة واطلقت عليها رصاصة الرحمة لم يدع الشاعر قصيدته تخلو من اشراقات جميلة نسبيا حين يقول لحبيبته :

« اذا تعاهدنا وسرنا ، ومضت سنين ـ الاصح سنون ـ / ولم تكن في بيتنا مؤونة الا اغاني الفجر والحنين ـ وهي كما تدرين ، لا تشبع جوعان ولا / تسكت صوت المعدة اللعين ـ ماذا ستفعلين / اتلعنين حبنا / وساعة فيها عرفنا بعضنا / آم سوف تنشدين / معي ، اغاني الثورة الحمراء / معي •• الى ان يذهب الشتاء ؟! » (٣) •

وعندما تطلب منه حبيبته ان يتنزها في المساء ، يتذكر ان النزهة ستكلفه نقودا ، يكد ويتعب من اجل ان يسد بما يحصل عليه رمق والدته واخوته ويكسو عريهم ، وكأس الكونياك الذي سيقدمه لها ، سيدفع ثمنه من ثمن الدواء لامه والحذاء لشقيقه ، فاعتذر لها قائلا :

« عفوا •• فاني متعب صديقتي / وسوف لن اخرج للمشوار في المساء » (٤) وفي قصيدة « اغنية على السطح » يعالج الشاعر المعضلة المزمنة في مسائل الحب في عالمنا المتخلف ، حيث يتم تزويج الفتاة من لا ترغب به • فيقص في قصيدته حكاية حبيبة تقف على سطح وتغني عن خطيبها الذي يجيء الى بيتهم فيحكي عن نفسه الاكاذيب ، بينما هي تذهب الى المطبخ وتبثه احزانها ! •• وعندما تناديها والدتها تتحجج بأن ابريق القهوة لم يغل بعد •• فيقهقه خطيبها بغباء :

« تغني على السطح بنت / ولا يسمع العالم : / انا حين يأتي خطيبي / الى بيتنا / اكشر ، لا أبسم » (٥) •

هذا عن صديقاته ، وحبيباته في الارض المحتلة ، وفي ظل الاحتلال الصهيوني • اما الامر مع صديقته بالمراسلة ، فالامر يختلف حيث يكتب لها الشاعر قصيدة بعنوان « الى صديقة بالمراسلة » : « صديقتي •• / لا تسأليني ، عن بلادي ، مرة اخرى / ولا تلحي / لا تضعي الفلفل والبارود / فوق جرحي ! » (٦) •

الوطن والذاكرة

جزء لا يستهان به من قصائد الديوان تعالج احاسيس الشاعر كونه مواطنا عربيا يقاوم الاحتلال ، علما ان جميع القصائد تنمو في مناخ رفض الاحتلال الصهيوني والتوق للتحرر والتحرير • ولكننا هنا سنعرض القصائد التي تتناول مباشرة الصراع بين العربي صاحب الارض الحقيقي والصهيوني الدخيل •

ان الشاعر يلجأ الى الذاكرة في معظم قصائده ، وخاصة قصيدة (١٩٤٨) ، القصيدة الاولى في الديوان ، حيث يسرد علينا مشاعره حين كان طفلا شرده العدو عن الارض الى لبنان فظن الامر مجرد هجرة اختارها والده :

« ولماذا يا ابي ؟ / اترى لبنان حلو كبلادي ؟ / اترى فيه حواكير جميلة / بينها ترتاح احلام الطفولة / اترى فيه صغار ، كبلادي يا أبي ؟ / اترى فيه •• طعام ؟!! / ••••• لا كلام ! / دمعت عين ابي ، اول مره / كان كالفولاذ طول

الرفيق غسان كنفاني

العمر ، / والدمع بعين الحر جمره !» (٧) •

ان هذه الغنائية الريفية ، وهذه التعابير الطفولية ـ نسبة للاطفال ـ تعتبر ميزة من ميزات شعر « سالم جبران » فقراءة اشعاره تضعنا في مناخ قريب من المناخ الذي تضعنا فيه قراءة الاشعار المخصصة للاطفال !

ففي قصيدة (١٩٤٨) ايضا يصور الشاعر كيف ان صوتا نادى في القرية يأمر الرعيان ان يعودوا بقطعانهم والاطفال آن يعودوا الى احضان والديهم :

« اخرجي ، خزنة ، للشباك شوفي / « يا حزاني ، يا حزاني ! » / صرخت امي برعب ، / هز اعماق دمانا / فصعدنا كلنا ، فوق الجدار : / ان سحماتا جحيم / حرقت ، فيه الحياة » (٨) •

فالشاعر يتذكر نفسه طفلا ، ويتذكر كيف تم تشريده عن قريته ، ولكن قصيدته التي قد تترك اثرا في الاطفال لا اظنها تاركة الاثر نفسه في الراشدين ! • وفي قصيدة « عين حوض » ص ١٣ ، يحكي الشاعر ان الارض لا تزال كما هي سخية في عطائها ، وعادات اهل الارض هي نفسها لم تتأثر ، بما طرأ •• كل ما في الامر ان « ابا محمود » الفلسطيني مات في المنفى •• بينما ـ منذ ان نفي ـ استوطن الرسام الصهيوني « بن نتان » بيته !

وفي قصيدة المعركة ، يصرح « يوسف » الفلسطيني بطل القصيدة ، ان بيته الذي بناه بنفسه حجرا حجرا ، وساعد البناء الذي جاء من « الرامة » ـ وهي قرية الشاعر سميح القاسم ـ في بنائه حجرا حجرا ايضا •• هذا البيت يهدم مثلما تنكسر البيضة بينما الجنود يحتجزونه •

ان الشاعر الذي يقول لبلاده في قصيدة بعنوان « اغنية » :

« لولاك هل كنا سوى جثث / ولولانا أكنت سوى قبور ؟! / كالسنديان ، / هنا سنبقى / كالصخور ••••• » (٩) •

يعلن في قصيدة « جيل الخيام » ان هذا الجيل سينمو رغم احاديثكم الحمقاء عن السلام ، طالما هو « غصن بلا جدار » !! ـ الصورة هنا غير موفقة ـ فدعوا الفتات على موائدكم ، ودعوا هذا الجيل على جوعه وعطشه •• وليفرخ الصهاينة الى عساكرهم العائدة « منتصرة » على بيت « يوسف » الفلسطيني ، مرحبين ، مهللين •• فالفجر قادم لا محالة وسيصل كل حق الى صاحبه •

وفي قصيدته « صفد » يقول الشاعر :

« غريب انا يا صفد / وأنت غريبه / تقول البيوت : هلا / ويأمرني ساكنوها ابتعد ! » (١٠)

هكذا ، وعلى أوتار مختلفة يعزف الشاعر انشودة واحدة تندد بالاستيطان الصهيوني •

« وطني ملكي / ابقاه لي اجدادي / وسأبقيه للأبناء / حرفيه انا •• اتجول كيف اشاء » ص (٥٦) •

العمال و « الجواسيس »

ان الشاعر يحاول في قصائده آن يعكس ايضا البعد الطبقي للقضية ، فهو اكثر من مرة وفي غير قصيدة ، يلتفت الى العمال ينشدهم ممجدا والى العملاء يدينهم بشدة • ففي قصيدته « يوم وليلة في المدينة » يتحدث الشاعر كيف انه ذهب الى المدينة بحثا عن عمل ، فاكتسب في رحلته اصدقاء جددا يبحثون ايضا عن عمل •• وتنتهي القصيدة بأن يعود الشاعر الى قريته ليخيب آمال أمه بسلة برتقال وامنيات اخته الصبية بفستان جديد ، لكنه يبرز تعاطف العمال فيما بينهم :

« وفي الصباح الباكر استفاق / قبلي الرفاق / وحينما فتحت عيني على سؤال : / فيم هنا ننام ؟ / يا فقراء الارض ! هل انجبنا الزقاق ؟! » / قال صديقي احمد في مرح حزين / قم اشرب القهوة بالحليب / مقارنا بين صباح الاغنياء في المدن / وبيننا •• وانحدرت من مقلتي دمعة /

(٩) المصدر السابق • ص (٣٠) •

(١٠) نفس المصدر • ص (٤٤) •